لمحة تاريخية لعلم المكتبات وحضارة وادي الرافدين

امير الروّاس
جامعة الموصل / المكتبة المركزية

المقدمة

قد يبدو غريباً حقاً ان نقارن او نحاول المقارنة بين عصرين مختلفين يفصل بينهم الاف من السنين ، بين عصر الأنسان في بدايات حضارته وتكوينه المجتمعات والأمم وبين عصر الأنسان في أوج عظمته وابداعه العقلي والفكري ، بين الأنسان الذي كان يعبد القمر خوفاً منه او تقرباً اليه وبين الأنسان الذي وطئت قدمه ارض القمر وغزا عالمه بل تجاوزه لما هو ابعد منه .

وقد يبدو للبعض غريباً ان نقارن بين مكتبات انسان العصور الأولى ومكتبات انسان هذا العصر الذي ادخل التكنولوجيا الحديثة والمكننة والحاسبات الألكترونية في كل عمل من اعمال المكتبة مهما كان بسيطاً .

الا اننا اذا ماايقنا ان انسان العقد الرابع من القرن العشرين يعود باصول حضارته الحالية إلى انسان ماقبل الميلاد بثلاثة الاف سنة . وان جذور هذه الحضارة نمت وترعرعت في ذلك الزمان حيث وضع انسان تلك العصور اللبنات الأولى والمباديء الأولى لاغلب العلوم الحالية ، كالرياضيات بفروعها والطب والهندسة والكيمياء والعلوم الزراعية وان من اوضح المظاهر الحضارية التي اكتسبها انسان العصر الحالي من انسان العصور القديمة

الكتابة التي اخترعها انسان وادي الرافدين ووادي النيل ، عند ذلك سوف لن يكون غريباً ان نقارن بين هذين العصرين في أي مجال من مجالات المعرفة ، وصولا لمعرفة أسس ومباديء العلوم الحالية والعناصر المشتركة بينهما .

ويهدف هذا البحث إلى تحديد العناصر المشتركة بين المكتبة بمفهومها الحديث واسلوب عملها والمكتبة التي اوجدتها حضارة وادي الرافدين ووضعت اسسها وغايتها شأنها في ذلك شأن بقية العلوم الحديثة التي جنى الأنسان ثمارها من تلك الجذور التي بذرت من قبل انسان تلك الحضارة العريقة .

وسوف اتناول في البحث مفهوم المكتبة قديماً وحديثاً وطبيعة المواد المكتبة وطريقة تصنيفها وتقديمها على شكل خدمات قرائية او خدمات معلومات مع دراسة اثر كل منها على نشاطات المكتبة الحالية ونظمها ، تاركاً بقية المجالات التي يمكن تناولها في دراسة أخرى كبناء المكتبات القديمة وادارتها وطرق المحافظة عليها ووقاية محتوياتها.

مفهوم المكتبة :

لعل ابسط تعريف للمكتبة هو انها المؤسسة التي تقوم بتدبير وتيسير الكتب والمواد المكتبية الأخرى للقراء والمنتفعين منها .

وقد عرف J. Brazun المكتبة انها « بيت الثقافة» او « بيت العقول » house of Intelligens والمحل الذي تلتقي فيه العقول وتجمع فيها الكتب التي يرتادها الباحثون بحثاً عن الحقيقة من خلال التجارب السابقة المعرضة للزوال السريع ولكن بها تخلد إلى الابد . (١)

وعرفها قاموس Webester انها « غرفة او قسم او سلسلة اقسام من مبنى او مبنى خاص بها تحوي داخلها كتب مخطوطات لفائف وغيرها تحفظ احياناً حسب نسق خاص بها » .

وكما يقول B.C.W. Sayers « بدون مؤلفات لايمكن ان يكون تأريخ وبدون مكتبات لاتوجد مؤلفات باقية » (٢) .

وان حاولنا تحديد اكثر لمفهوم المكتبة ووظيفتها بشكل مبسط من أجل أن تكون ناجحة في اداء رسالتها التي وجدت من اجلها قديماً او حديثاً يمكن ان نلخص ذلك بما يلي : —

أ — المكتبة مؤسسة تقتني الكتب والمطبوعات والمواد المكتبية الأخرى بشتى الوسائل من شراء او اشتراك او تبادل او ايداع ... الخ مما ينطبق عليه مفهوم التزويد بمصطلح علم المكتبات Collection .

ب — المكتبة تعد المواد التي تقتنيها بحيث تؤمن ملكيتها اولا ثم تجمعها في مجاميع وفق معايير متفق عليها تيسر استخدامها والرجوع اليها من قبل المنتفعين ، وهو مايطلق عليه بالتعبير المكتبي الحديث « الأعمال الفنية Technical work)

ج — توفر المكتبة للقاريء كل مايعينه على استعمالها من تعريف بموجوداتها وارشادات للوصول اليها وطرق الأستدلال على محتويات المواد المتوفرة فيها ، او اجابة لاشكالات الباحثين في هذه الموارد وطرق استرجاعها وهو مايطلق عليه بالخدمات القرائية او خدمات المعلومات Reader service or Information service .

اذا كانت وظيفة المكتبة مهما كان حجمها او نوعها لاتتعدى الوظائف الأساسية المثلاث التي ذكرناها . اذا لنعد إلى مكتبات وادي الرافدين القديمة ونقارن هذه الوظائف والمقومات مع وظائف ومقومات تلك المكتبات .

ورد في تعريف المكتبة انها غرفة او عدة غرف من مبنى او بناية خاصة تحوى داخلها كتب ، ارشيف ، مخطوطات وغيرها .

ان هذا مما ينطبق تماماً على واقع مكتبات وادي الرافدين ايام السومريين والبابليين والاشوريين والاقوام الاخرى التي سكنت هذه المنطقة . فقد كانت المكتبات لديهم غرفة او عدة غرف تكون عادة جزء من المعبد او القصر الملكي او قصور الامراء والحكام او أنها ملحقة بالمدرسة التي يطلق عليها (بيت الالواح) فقد كشف مثلاً في تل حرمل عن معبد وقصر ومدرسة ومعابد اصغر من المعبد الاول وجملة بيوت لعلها كانت مدرسة حيث وجد فيها نماذج من النصوص والمؤلفات المدرسية (٣).

ويقول صموئيل كريمر (وعلى الارجح ان «ايدوبا» (المدرسة) تمتلك مكتبة ، ولو ان المعبد والقصر ربما كانا يمتلكان ايضاً نسخاً من تلك التأليف التي كانت ذات علاقة باحتياجاتها الخاصة . (٤)

وقد كانت الحاجة هي التي اضطرت المدرسة لانشاء المكتبة فيها حيث كان الهدف الاساسي للمدرسة السومرية مايصح ان نسميه بالتخصص او التدريب المهني ، أي انها اسست لغرض تدريب الكتبه الذين كانوا يحتاجون اليهم لسد المتطلبات والحاجات الاقتصادية وقد استمر هذا الغرض هدفاً اساسيا للمدرسة السومرية في جميع عهود وجودها وعلى أي حال اصبحت المدرسة خلال نموها وتطورها ونتيجة للازدياد المستمر في التوسع في مناهجها مركز العلم والثقافة في بلاد سومر . فقد عاش وازدهر بين جدرانها العالم الباحث ذلك الرجل الذي كان يتزود بجميع فروع المعرفة المعروفة في زمانه ... اضف الى ذلك ان المدرسة السومرية كانت على خلاف مؤسسات التعليم الان مركزاً لما يمكن تسميته بالتأليف الابداعي .. (٤)

وعلى هذا تكون المكتبات الملحقة بالمدرسة قد قامت مقام المكتبة الجامعية او الاكاديمية الان University Library والمكتبة المدرسية معاً School Library

اما المكتبات الملكية التي أنشئت في قصور الملوك والحكام وعلى مختلف العصور فقد كانت اشبه ماتكون بالمكتبات القومية او الوطنية National Library ذلك

لانها كانت تحرص ان تضم ضمن مجاميعها كافة الوثائق او المعاهدات التي تخص الدولة اضافة الى حسابات الخزينة مصروفاتها وتفاصيل الحروب التي يخوضها الملوك والحكام مما يشكل فيها ارشيف الدولة ولكونها مفتوحة امام جمهور القراء كما نستشف من العبارة المكتوبة على مدخل مكتبة نينوى او مكتبة اشور بانيبال التي يقول فيها «قصر الملك اشور بانيبال ملك العالم ، ملك اشور المتوكل على اشور وبعل الذي أعاره نبو Nebo أذنا صاغية ليسمع وعيناً ليرى والذي ليس من الملوك من اسلافه من استطاع ان يتعلم حكمة الاله نبو التي دونت بالالواح هذه لقد دونت على هذه الالواح ماشئت قراءته وتعلمه ووضعتها في قصري وكل من يأخذها من مكانها ويزيل ماعليها من كتابة او يضع اسمه بمحل اسمي عسى ان تلعنه الالهة وتستاصل ذريته من على وجه الارض» (٥)

مما يدل على انها كانت تستخدم من الناس من غير اهل القصر التي فيه . لذا يمكن القول انها مكتبة عامة Public Library

وعلى كل حال فقد ارتبط نشوء المكتبات وتواجدها وعلى اختلاف انواعها بالطبقة المثقفة من الناس واماكن تمركزهم حيث كان يقع على عاتقهم مهمة تزويد المكتبة بالمؤلفات الجديدة وتغذيتها بما يستجد من الالواح .

وهذه ظاهرة لازالت قائمة لحد الان فلا زالت المكتبة الحديثة مرتبطة بالطبقة المثقفة من الناس او المجتمع المثقف . وحديثاً يقال ان كثرة مكتبات الأمم يدل على رقيها وتقدمها العلمي والثقافي (٦) وهذا يتضح بازدياد عدد المكتبات في الدول الأسكندنافيه مثلا وهي من البلدان التي تأتي في المرتبة الأولى بين بلدان العالم في ارتفاع نسبة الثقافة بين سكانها . وكذلك الحال في الولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتي او انكلترة وفرنسا.

فاذا كانت هذه الدول تعتبر من المراكز الحضارية والثقافية لعصرنا الحاضر فان دول وادي الرافدين كانت مركزاً حضارياً لحضارة مايزيد عن ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد .

مكونات المكتبة :

ذكرنا ان المكتبة تحوى مجموعات الكتب والمواد الثقافية الأخرى ، وواضح اننا نقصد بالمواد الثقافية تلك المواد التي لاينطبق عليها تعريف « الكتاب » مما اضافته حضارة انسان العصر الحديث . مثل الدوريات والمجلات والصحف والنشرات والمواد السمعية والبصرية .

الا أن الكتاب لازال يشكل العنصر الأساس في بناء مجاميع المكتبات لذا لابد لنا من ان نحدد ماذا نعني بالكتاب .

يعتمد تعريف الكتاب صفتان الشكل Phisical والوظيفة Function فهو عبارة عن مجموعة اوراق مترابطة مع بعضها يحويها عادة غلاف وهو من الناحية الوظيفية اداة نقل للمعلومات ومن الناحية التأريخية مجموعة الكتابات التي لها فائدة لمدة طويلة»(٧).

كما عرف قاموس Webestar الكتاب بانه « وثيقة مكتوبة او مجموعة صحائف مكتوبة على جلد او الواح او خشب او عاج او لفائف متسلسلة من رق او مخطوطات مجموعة مع بعضها » والكتاب هو المادة المكتوبة ايا كان نوعها بغض النظر عن طبيعة محتواها (٨) .

فالكتاب اذا هو اداة الأتصال الحضاري وهو اساس مكونات المكتبة وأهم موادها وهذه صفة اكتسبها الكتاب ليس في العصر الحديث فقط . انما ترجع في اصولها الى بداية نشوء المكتبات وتزامن مع اختراع الكتابة وان كان الأختلاف واضحاً في الشكل التركيبي الذي عليه كتاب اليوم .

ولعل هذا هو أهم اختلاف بين مكتبة العصور القديمة في وادي الرافدين ومكتبات العصر الحاضر ، حيث كانت الالواح الطينية هي أهم مكونات المكتبة والتي اتخذت اشكالا هندسية مختلفة منتظمة وغير منتظمة .

فقد وصف كريمر أحد الالواح الطينية كمايلي : —

«اما هيئة اللوح فمربع الشكل نحو (٩ × ٩) انج فيكون في مساحته أقل من صفحة الطباعة المألوفة . ومع صغر اللوح استطاع الكاتب الذي دونه ان يقسمه الى اثني عشر حقلا واستطاع باستعماله خطأ دقيقاً ان يدون في هذا المقدار اكثر من ستمائة سطر من قصيدة سومرية في اعمال البطولة » (٩) .

ورتب مايسمى بـ« ثبت الملوك المتعاصرين» في لوح واحد بعمودين من الكتابة احدهما بجانب الاخر . يذكر في العمود الاول اسماء (٨٢) ملكاً اشورياً ويذكر في العمود الثاني (٩٨) ملكاً من الملوك البابليين المعاصرين للملوك الاشوريين . (١٠)

كما وصلت الينا وثائق أدبية سومرية تتراوح في احجامها بين الواح كبيرة ذات اثني عشر حقلا (عموداً) كتبت عليها نصوص تضم مئات السطور المتلاحقة وكسر الواح ، صغيرة جدا لاتحتوي على اكثر من بضعة سطور مكسورة ،وتصل التأليف الادبية المدونه على هذه الالواح والكسر الى مئات وتختلف اطوالها فمنها تراتيل ذات أقل من خمسين سطراً ومنها اساطير مؤلفة مما يقرب من الف سطر . (١١)

ولم تقتصر كتابة النصوص القديمة على الواح الطين بل استخدمت مواد أخرى للكتابة عليها منها الحجر بانواعه والمعادن على اختلافها والعاج . ولعل اكثر المواد التي استخدمت للكتابة عليها شبهاً بالكتاب في بداياته هي تلك الالواح الخشبية المستطيلة المترابطة ببعضها بواسطة احزمة من الجلد لتكون مايشبه الكتاب ويبدو ان الاشوريين الذين استخدموا تلك الالواح قاموا باكساء وجه الالواح الخشبية بطبقة رقيقة من الشمع ثم طبعوا على تلك الطبقة العلامات المسمارية المكونة للنص غير ان عوامل المناخ قد حالت دون بقاء تلك النصوص والالواح (١٢) وقد تمكن المنقبون الانكليز في مدينة النمرود (كلخو) من التعرف على بقاياها كما اشارت اليها بعض النصوص المسمارية المعاصرة الاخرى .

من هذا يمكن لنا ان نتصور الانقلاب الذي أحدثه الورق بعد اختراعه في تطور المكتبة الحديثة بعد ان كانت معتمدة في محتوياتها على الالواح الطينية الصعبة الاستعمال والتسجيل او الحجر او الخشب .

واذا ماحاولنا المقارنة بين مكونات مكتبات وادي الرافدين مع مكونات المكتبة الحديثة كان لزاماً علينا ان نتصور الصعوبات التي يواجهها الكاتب القديم عند كتابته والوقت الذي يستغرقه كتابة لوح واحد مما يعادل حالياً كتابة كتاب كامل مما تنتجه المطابع الحديثة . ومع ذلك فأن مراجعة اعداد كتب « الواح » بعض المكتبات المشهورة تعطينا فكرة عن مقدار ثروة المواد الثقافية في تلك الازمان الغابرة مما يحملنا على القول انها كانت توازي مايتنجه انسان العصر الحديث تقريباً .

ففي مدينة سبار وهي من المدن السومرية المشهورة عثر في معبدها على ١٠,٠٠٠ لوح مصنفة ومرتبة على رفوف من الحجر بينما قدر هرمز رسام الذي نقب في هذه المدينة عدد الواح مكتبة هذة المدينة بـ٤٠,٠٠٠ ـ ٥٠,٠٠٠ لوح «كتاب» وزاد هذا الرقم عند Budge, W.C في كتابه Rise and Progrese of Assyriology الى اكثر من ١٣٠,٠٠٠ لوح . (١٣) ومن مدينة لكش وصل الينا ٣٥,٠٠٠ ـ ٤٠,٠٠٠ لوح من مكتبة معبدها . (١٤)

ومن مكتبة مدينة نفر عثر على مايقرب من ٣٠,٠٠٠ لوح كانت اغلبها في علوم ذلك العصر من كتب تختص بالرياضيات وعلم الفلك والطب والتاريخ واللغة والتسابيح والادعية والنصوص الاسطورية . (١٦)

ومن نفس المدينة من معبد الاله انليل فيها وصل الينا ٢٣,٠٠٠ لوح (١٧) . ومن مكتبة اور حصلنا على ٣٠٠ لوح ومنها حصلنا على اسم اول مكتبي في العالم وهو Amil Anlu حافظ الالواح (١٨) ، ومن مكتبة كلخو «النمرود الحالية» . وصل الينا ٢٥,٠٠٠ لوح كانت تحت اشراف المكتبي NABU - ZUQUB - GINA أبن المكتبي MAMDAK-MUBAGAR (١٩) .

ومن مكتبة اكد التي نقلت الى نينوى وصلت الواح مختومة بختم المكتبي Ibsiarru الذي اشار انه وضع فهرس مع تعليمات لارشاد القراء في مكتبته . (٢٠)

ومن مكتبة نينوى المشهورة بمكتبة اشور بانيبال وصل الينا ٢٦,٠٠٠ لوح كانت باحجام متفاوته وكانت تحت اشراف المكتبي NEBO-ZUQUB-YUKIN الذي عمل على تنظيمها ووضع فهارسها . (٢١)

ولعل فيما ذكرت من ارقام لعدد ألواح بعض المكتبات تضعنا امام فرضية لازمة لها وهي انه لابد لهذه الاعداد الهائلة من الالواح من نظم خاصة وضعت لها لترتيبها واستعادة او استذكار مافيها من معلومات . وهو ماسوف نتطرق اليه فيما بعد .

عناصر مشتركة لمكونات المكتبة :

بعد ان استعرضنا مفهوم المكتبة قديماً وحديثاً والمحنا الى ضخامة بعض مكتبات وادي الرافدين ، سوف نحاول دراسة العناصر المشتركة بين الالواح الطينية Cuneiform التي تمثل مكونات تلك المكتبات والكتاب الحديث الذي يمثل اهم مكونات المكتبة الحديثة بمقارنة النواحي التالية : —

(آ) كان الكاتب في العصور القديمة يستعمل احياناً طريقة الكتابة بالاعمده "Columon" في ترتيب كتابة النص الذي يرغب بتدوينه خاصة تلك النصوص التي يعتبرها ذات أهمية خاصة كالقوانين والمعاجم .

وهذه الطريقة مازالت مستخدمة في طبع الكتب الحديثة كدوائر المعارف او الكتب المرجعية والمعاجم اما في كتابة النصوص الاعتيادية فقد رتبها الكاتب القديم باسطر متتالية من اليسار الى اليمين على وجه اللوح وقفاه تماما كما يفعل كاتب النص الحديث في طبع كتابه.

(ب) وضع كاتب العصور القديمة مايستعين به لتوضيح كتاباتـه من رسـوم Illstrations وخطوط Graphs وخطط Plans مع ختم وتوقيع الكاتب في نهاية اللوح او الالواح التي تكون للنص .

يقول كريمر «... ونجد اسفل منتصف الحقل الايسر من اللوح الكاتب القديم وقد دون اسمه بهيئة – ارا – ايميني – الذي يرجح ان يكون المؤلف الاصلي لذلك الكتاب ، ولكن لعله ليس المؤلف الاصلي بل احد النساخ ويعد هذا التوقيع من اقدم الامثلة على اسماء المؤلفين في تاريخ الكتابة . وعلاوة على ذلك فان المؤلف بمقتضى الاراء الدينية الشائعة راى لزاماً عليه ان يذكر اسماء مؤلفين اخرين بالاشتراك معه وهم الالهة...». (٢٣)

ان هذه المعلومات مع عنوان النص الذي سجله الكاتب يمكن ان تقوم مقام مانسميه اليوم بـ Colophon (٢٤) التي اتبعت بشكل خاص ايام كتابة المخطوطـات Incunabula .

(ج) ويستمر الكاتب في كتابة نص الرقم الطيني على شكل اعمدة لحين الانتهاء من صفحة الرقم ثم يقوم بتدوير الرقم الى الوراء بدرجة ٩٠ ثم يستمر بالكتابة (٢٥) مما يشكل لدينا بمصطلح الكتاب الحديث Verso او Filos .

(د) خصص الكاتب القديم اعلى اللوح الاول الذي يستخدمه للكتابة النص للكلمات الافتتاحية او عنوان مايرد تسجيله ثم يترك مسافة واضحة ليسجل بعد ذلك النص بعد ان يكون قد سجل العنوان واحياناً التاريخ واسم صاحب اللوح (٢٦) ان ذلك يشكل بمفهوم الكتاب الحديث صفحة العنوان Title Page .

(هـ) اذا احتوى النص على اكثر من لوح كانت الالواح ترقم ويعطي له رقم تسلسل وتوضع مربوطة مع بعضها على الرفوف (٢٧) مما يمكن ان يمثل لدينا بيانات التوريق Pagination ، وللتاكيد كانت الصفحة التالية تبدا باخر كلمة من الصفحة التي سبقتها او بالسطر الاخير منه وبهذه الطريقة استطاعوا ان يضعوا على الرفوف رقم الطين الواحد بعد الاخر التي تمثل نص الالواح (٢٨) واحيانا يذكر الكاتب مجموع الخطوط التي احتوى النص عليها ليرشد القارىء الى بداية ونهاية اللوح. ان هذه الطريقة مستعملة حديثاً بما يعرف Catch Line او Catch Word .

(و) وقد يظهر لدينا في الواح المكتبات القديمة نظامين للترقيم في حالة كون اللوح مقسم الى فصول او اقسام يكون الترقيم الاول للنص الكامل والثاني للسلسلة او

الفصل او اقسام الكتاب (٢٩) ولازالت هذه الطريقة متبعة في ترقيم بعض الكتب الحديثة خاصة في دوائر المعارف.

(ز) يغلب على نصوص الالواح انها مجهولة المؤلف تماما كما هي حال الكثير من كتب او مخطوطات العصور الوسطى .

(ج) ان وظيفة الكتاب في كلا العصرين القديم والحديث لم يطرأ عليها اى تغيير حيث مثل ويمثل الكتاب قديماً وحديثاً مادة الاتصال Communication والمعلومات Information وبقي كوسيلة نقل وايصال العلوم والاداب من حضارة الى حضارة ومن شعب الى شعب.

الفهرسة والتصنيف

للكشف عن العناصر المشتركة في نظم الفهرسة والتصنيف بين مكتبات وادي الرافدين القديمة والمكتبة الحديثة لابد لنا اولا من ان نتعرف على الاسس والقواعد المبسطة التي تقوم عليها نظم الفهرسة والتصنيف في العصر الحديث، وذلك للتعرف على المشترك منها مع القديم.

وطبيعي اننا لانتوقع ان نجد تشابهاً واضحا بين النظامين نظراً للبعد الزمني بينهما ، الا أننا سوف نحاول الكشف عن بعض المؤثرات للنظم القديمة استطاعت ان تطبع الحديث بطابعها .

الفهرس Cataloge ((قائمة تسجيل او هو عبارة عن تعداد تام في معناه المبسط ، وفي معناه الحديث يعرف عادة بانه قائمة تعداد بنظام او بموجب مبدأ خاص بالترتيب قد يكون هجائياً او اى شكل اخر مع اعطاء الصفات الخاصة ووصف او تحديد المكان)) (٣٠) .

والفهرس نوعان:

(أ) ذلك الذي هو عبارة عن قائمة جرد Invontry List

(ب) ذلك الذي هو عبارة عن اداة استرجاع Ritrivial aid

ومع ان الفهرس الحديث قد تغير قليلا عن كونه قائمة رفوف او قائمة جرد لمجموعات المكتبة، فالمهم فيه هو كيف يمكن استعادة المعلومات بترتيب منظم للمخازن استناداً

الى موضوعاتها مع التركيز على سهولة هذا النظام وفهمه بصورة جيدة من قبل المكتبي الذي يستخدمه .(٣١)

وبعبارة اخرى انه اعداد المواد الثقافية التي تحتويها المكتبة بشكل يجعل هذه المواد في متناول القارىء بايسر السبل وباقل وقت ممكن، وتعد هذه العملية من اهم العمليات واكثرها تعقيدا وتحتاج الى المكتبي المؤهل اذ ان احكامها ودقة بياناتها سيعطي المردود الحسن في تقديم الخدمات المكتبة . (٣٢)

وقد لخص رانكاناثان صاحب تصنف كولون الاهداف التي يمكن للفهرس ان يحققها بما يلي : —

(أ) ان يظهر لكل قارىء كتابه.

(ب) ان يكون لكل كتاب قارئه.

(ج) ان يحافظ على وقت القارىء (٣٣)

والفهرسة نوعان : —

(أ) الوصفية التي يقصد بها وصف ملامح المادة من حيث الشكل .

(ب) الموضوعية التي يقصد بها تحديد الموضوع الذي تعالجه تلك المادة من حيث النص والمضمون وهو ما يعرف بالتصنيف Classification .

ومن المعلومات التي وصلتنا عن فهارس مكتبات وادي الرافدين يمكن القول ان اغلب تلك المكتبات استخدمت مايعرف حديثاً بالفهرس المصنف Classified Catalog كما يقول G.Bushnell . في كتابه The world Earlist Labraries واننا يجب ن لانتصور ان فهرس مكتبات عصر سرجون في اكد هي اولى الفهارس الموضوعية انما كانت نتيجة عمل اجيال او تجارب سابقة، وليست لدينا صورة واضحة عن فهارس تلك الفترة، ولكن الشيء الاكيد الذي نعلمه عنها انها كانت مصنفة بالموضوع مع تعليمات للقراء عن كيفية الحصول على الكتب التي يرغبونها . وقد كانت اغلب المكتبات الامريكية لوقت قريب تتبع طريقة التصنيف بالموضوع المرتب هجائياً » .

لاشك ان هذه الطريقة تواجه صعوبتين اساسيتين:

(أ) مشكلة الترادف باسماء المواضيع.

(ب) مشكلة الترابط بين المواضيع حيث قد يشترك عنوان ليشمل اكثر من موضوع

وعلى كل حال فان هذه الصفة مشتركة بين المكتبات القديمة والحديثة حيث بدات كلا المكتبتين بقائمة الجرد او قائمة الرفوف Shelf List ثم تجاوزت كلا المكتبتين قائمة الجرد الى نوع من التصنيف الموضوعي ويمكن ان نحدد ميزات فهارس المكتبات القديمة بما يلي :

(أ) انها ذات افكار مرتبكة في طريقة تتابع المداخل .

(ب) انها تختص بعدد قليل نسبياً من الكتب (الالواح) .

(ج) انها ربما كانت نوع من انواع البيليوغرافيا الحديثة (٣٤).

وقد اعتمدت النظم الحديثة للتصنيف تقسيم المعرفة البشرية الى اقسام اختلفت اعدادها من نظام الى اخر كان الهدف منها تسهيل الوصول الى مواد المكتبة المخزونة في قاعاتها . فتصنيف جبريل نوديه Cabrial Nude الفرنسي قسم المعرفة الى (١٢) قسماً، كما قسم كونراد فون جستر Kenrad Von Gasner الالماني المعرفة البشرية تقسيماً فلسفياً متاثرا بتصنيف فرانسيس بيكون F Becon ثم وضعت تصانيف اخرى منها تصنيف Harris Deort سنة ١٨٧٠ وغيرها الى ان ظهر تصنيف ديوى العشرى سنة١٨٧٦(٣٥) الواسع الانتشار حالياً في امريكا واوربا في المكتبات العامة والجامعية ، لذا سوف نحاول عقد مقارنة بينه وبين مايعرف بالتصنيف الملكي الذي كانت مكتبة نينوى قد رتبت بموجبه .

الا أننا قبل ذلك لابد ان نشير الى الجهود التي سبقت هذا التصنيف ومهدت له فسي مكتبات سبقت مكتبة نينوى كان لها تأثير على تصنيف مكتبة نينوى وبشكل مباشر مما يحملنا على القول ان هذا التصنيف كان شكلا متطوراً لتصانيف بدائية سبقته .

فقد وصف كريمر مااعتبره اول فهرس في العالم ضمن الواح مكتبة نفر بعد ان استطاع حل رموزه اتضح انه تسجيل لمؤلفات سومرية حسب عناوينها وقد عاش مصنف هذا الفهرس حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. وكان معاصراً للمؤلفات الموجودة فيه.

يتألف هذا الفهرس من لوح بابعاد ٦,٢٥سم + ٣,٧٥ سم وقد قسم الى عمودين سجل فيه ٦٢ مؤلفاً سومرياً. فقد سجل اول ٤٠ عنواناً منها بخط دقيق في اربعة حقول وكل حقل مقسم الى عشرة اعمدة، وضع خطاً مستقيماً بين كل حقل، اما بقية العناوين البالغة (٢٢) مؤلفاً فقد قسمها الى مجموعتين غير متساويتين الاولى تضم (٩) مؤلفات

والثانية تضم (١٣) مؤلفاً (٣٦). وبين الالواح المنقولة من مكتبة اكد عثر على اول فهرس موضوعي مع ارشادات للقراء حول طريقة استخدامه . (٣٧)

اما فهرس مكتبة نينوى التي نقلت اليها اغلب المكتبات الموجودة في المدن السومرية والبابلية المعروفة انذاك فقد رتبت بشكل بحيث حددت لها عناوين ووضحت تسلسلاتها بواسطة ارقام (٣٨). وقد قسمت بشكل واضح الى المداخل الرئيسية التالية :

أ – التاريخ	History
ب – القانون	Law
ج – العلوم	Selence
د – السحر	Magic
هـ – العقائد	Dogma
و – الاساطير	Lagenda (٣٩)

ان نظرة الى تقسيمات تصنيف ديوى العشرى العشرة التي جاءت حصيلة انظمة سابقة عديدة كما ذكرنا لاشك اننا سوف نجد ان روح واسس هذا النظام قد تأثرت بالتقسيمات التي ذكرناها لمكتبة نينوى بشكل غير مباشر ابتداء من فهرس مكتبة الاسكندرية الذي وضعه كاليماخوس متأثرا بنظام مكتبة نينوى والمعروف بـ Pinats الذي اعتبر او عمل بيليوغرافي للادب الاغريقي كذلك فهرس ارستوفان الذي وضع Grates of Malls ثم تصنيف ارسطو. فتصانيف العصور العربية التي انتقلت الى اوربا وصولا الى تصنيف ديوى العشري الذي صنف المعرفة البشرية الى تسعة اقسام من ١ – ٩ مضيفاً اليها قسما عاشراً للمواضيع العامة التي اعطاه الرقم صفر «0» .

وبمقابلة التقسيمات التي ذكرناها لفهرس مكتبة نينوى مع تقسيمات تصنيف ديوى يمكننا عقد المقارنة التالية لنلاحظ اثر تقسيمات مكتبة نينوى فيه وكما يلي:

تصنيف مكتبة نينوى	مايقابلة في تصنيف ديوى العشري	
(أ) التاريخ	900	التاريخ والجغرافيا والتراجم
(ب) القانون	300	العلوم الإجتماعية
(ج) العلوم	500 – 600	العلوم والبحتة والعلوم التطبيقية
(د) السحر		الفنون (اذا اعتبرنا السحر نوعاً من الفنون)

(هـ) العقائد 200 الديانات

(و) الاساطير 400 - 800 اللغات والاداب

ثم اضاف اليها كاليماخوس ماعرف بالمختارات او المتنوعات Miseellaneeus الذي يمثل عند ديوى الرقم (000) صفر .

وقد فرع كل من فهرس مكتبة نينوى ومكتبة الاسكندرية هذه المداخل الرئيسية الى مداخل فرعية Sub entry ويذكر Richardson في مقاله نشرها في مجلة Britsh Review Vol. 51. 1870. p. 168 ان الادب كان مقسماً في مكتبة نينوى الى شعر ونثر وان الشعر مقسم الى ملاحم وشعر هزلي وشعر درامي وشعر الحماسة.

وفي مكتبة اشورية اخرى كان الشعر مفصول عن بقية الاعمال. كما وجدت (٢٥) لوحا لمكتبة ثالثة كانت موزعة بالشكل التالي:

(أ) ١٤ لوحاً متعلقة بقضايا الأرض Terrestrial

(ب)١١ لوحاً متعلقة بعلوم الفضاء Astronomical

وهذه الاخيرة مقسمة الى تفريعات هي

A - فينوس Venus

B - الكواكب بصورة عامة The Planets In Genaral

C - القمر Moon

D - المذنبات : Comets (٤٠)

ان هذا هو مافعله ديوى في تصنيفه العشري حينما فرع من المدخل العام الى المدخل الخاص ثم الاخص. مع الفارق ان ديوى اتبع الدقة والمنطق في تقسيماته بشكل ادق مما ورد في تقسيمات مكتبات وادي الرافدين .

هذا كما اتبعت مكتبات وادي الرافدين طريقة ترتيب الالواح على الرفوف حسب احجامها، فكانت الالواح الكبيرة ترص على رفوف خاصة بينما توضع الصغيرة منها في جرار داخلها تقسيمات تشبه الرفوف ليسهل الرجوع اليها او أستعادتها مما يمكن ان نجد مايماثله حديثاً فيما يعرف بالملف القائم Vertical File (٤١) . ان هذه الطريقة اتبعت في كثير من المكتبات الحديثة الى وقت متأخر فقد كانت مكتبة الكونغرس الامريكي الى بداية القرن التاسع عشر ترتب مجلداتها بهذه الطريقة كما قسم "Jacob' Schawartz" مكتبة بروكلين العامة "Brekly Public Lib" ان

٤٤ مدخلاً. ثم قسم هذه الى (٤٠٠) فرعاً وأشار اليها برقم الرف الموجود عليها الكتاب.

واستخدمت كلا المكتبتن القديمة والحديثة طريقة كتابة عناوين النصوص او الكتب التي على الرف على قطعة توضع جانب الالواح او الكتب بداية الرف لتدل الباحث على ما يحمله الرف او مجموعة الرفوف من النصوص او المواضيع . (٤٢)

الخدمة المكتبية

يقصد بالخدمة المكتبية طريقة تقديم المعلومات المخزونة في المكتبة الى المستفيدين منها وبتعبير اخر انها وسيلة الاتصال بين محتويات المكتبة ومجاميعها وبين القراء والمراجعين.

وطبيعي ان لافائدة من وجود اية مكتبة اذ ما اقتصرت على تجميع وخزن الكتب فقط دون السماح باعارة ماحصلت عليه وتداوله لفائدة الجميع.

وحديثاً يحتل قسم الخدمة المكتبية او قسم الاعارة مكاناً خاصاً من مبنى المكتبة الحديث ، ولكل مكتبة تعليمات خاصة بها حول اسلوب اعارة المواد المكتبية والافادة منها تضعها بما يتلاءم وطبيعتها وحسب نوعية المكتبة ونوعية القراء والمواد المكتبية المعارة .

وأغلب المكتبات الحديثة تفرض تعليمات انضباطية من اجل الحفاظ على مجاميعها او قد تضع اللافتات في قاعاتها لتنبه القارىء الى ضرورة المحافظة على المادة التي بين يديه التي أستعارها من التلف او العبث بها وأحياناً تلجأ المكتبة الى فرض الغرامات المالية على كل من ارتكب مخالفة لتعليماتها او تفرض الحرمان عليهم من الافادة من مجاميعها .

ورغم اختلاف الطرق الحديثة لاساليب الاعارة في المكتبات الا أن اغلبها يستعمل طريقة مليء استمارة للمادة المعارة يثبت بها اسم المستعير وعنوانه مع اسم المادة المعارة او رقم تصنيفها.

وأذا ما قارنا هذه الاسس المبسطة لاساليب الخدمة المكتبية الحديثة مع ماكان متبع في مكتبات وادي الرافدين تستشف منها انها انتقلت الينا عبر العصور من تلك المكتبات وتعليماتها . وأن تلك المكتبات كانت تقوم بتقديم الخدمة المكتبة للمستفيدين منها.

يقول A.H.Sayec في كتابه Babylonian Litreture « المكتبات العامة وجدت ودعمت من قبل الملوك والأمراء وكانت مفتوحة لكل الجمهور والادباء وكانت هناك لفائف توضع للقارىء وتعليمات توضح كيف يمكن استخدام المكتبة وتحدد مواضيعها» (٤٣).

كما يقول كريمر «ويصعب علينا ان نقول أمفتوحة كانت المكتبات الاشورية للجمهور ام لا ؟ من المحتمل انها كانت توضع تحت تصرف العلماء والباحثين ولاسيما المحامين ورجال القانون انذاك ونسبة معينة من الناس ليدرسوا فيها ويراجعوا مختلف «الكتب» التي كانت تحفظ على رفوفها» (٤٤).

ومن مخطط مكتبة نينوى يمكننا ان نستنتج انها كانت مكتبة مفتوحة عامة حيث كانت مداخل المكتبة منفصلة عن القصر الملكي ومداخله مما يدل ان هذه المكتبة استخدمت من اناس غير العائلة المالكة من الباحثين .

ولعل العبارة التي وضعت في مكتبة اشور بانيبال التي ورد ذكرها والتي انزل فيها اشد العقوبات على المتلاعبين بمحتويات المكتبة او السارقين منها تدلنا على ان هذه المكتبة كانت تستخدم من اناس غير عائلة الملك بل الجمهور العام عندما يقول «لقد دونت على هذه الالواح ماشئت قراءته وتعلمه ووضعتها في قصري وكل من ياخذها من مكانها او يزيل ماعليها من كتابة او يضع اسمه محل اسمي عسى ان تلعنه الالهة وتستأصل ذريته من على وجه الارض» (٤٥) .

اليس هذا دليلاً على ان هذه المكتبة استخدمت وسائل رادعة للمستعيرين كما هي حال المكتبات الحديثة التي تفرض الغرامات المالية كوسيلة رادعة في العصر المادي الحالي بينما كان انزال لعنة الالهة في عصر كان للالهة تأثيرها الروحي الكبير على نفوس وعقليـــة ذلك المجتمع خير رادع للالتزام بتعليمات المكتبة والمحافظة على مجاميعها .

كما ان وضع تماثيل الالهة وتوزيعها على قاعات مكتبة نينوى كان متعمداً من ادارة المكتبة كوسيلة اخرى رادعة ذلك لاعطاء شيىء من الهيبة والاحترام لها ولتشعر المستفيدين ان الواحها بحماية هذه الالهة ، وأن لعنتهم سوف تحل بكل من يحاول الاساءة اليهـــا او للتلاعب بها . وهي من العقوبات التي كان لايتجرأ أي شخص ان يجازف بتحملها او تقبلها .

الخلاصة

مما سبق يتضح ان علم المكتبات الذي يعتبر هذا اليوم من العلوم الحديثة والنشطة للمتغيرات والاضافات الكثيرة والمتلاحقة التي نظراً عليه نتيجة دخول المكتبة الحديثة والحاسبات الالكترونية في تقنياته وكافة مجالاته ، يتضح ان جذور هذا العلم يعود الى حضارة وادي الرافدين شأنها في ذلك شأن بقية العلوم المعصرية التي اعتمدت في تطورها على ماوصل اليها من اسس وضعها انسان حضارة هذا البلد .

ففكرة خزن المعلومات والمحافظة عليها وتسجيلها باستمرار فكر بها انسان وادي الرافدين فخزنها ودونها وأنشأ لها المكتبات ، ثم فتحها للجمهور العام لاعمام الفائدة منها . ووضع لها نظماً ليسهل بها استرجاع المعلومات المخزونة ووضع تعليمات للمحافظة عليها ، ان مانطبقه اليوم في مكتباتنا وما يفعله العالم في مكتباته ماهي الا افكار وابتكارات وجدت جذورها في مكتبات هذا البلد

(1) Shera, Jesse H.: The complete Librarian and Other essays selected from the columns published in Wilson Library Bulletin; London The Press of case western reserve, 197i p. 18.

(2) Shera, Jesse H.: Librarian and Organization of knowledge ; edited with an introduction by Foskett, D.J.; London Gros by Lockwood and Son., 1965. p. 20.

(3) كريمر، صموئيل
من الواح سومر، ترجمة طه باقر، مراجعة احمد فخري، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٥٦ ص ٤١٢ .

(4) نفس المصدر ص ٤٥ – ٤٦.

(5) كريمر، صموئيل: السومريون، تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، الكويت ، وكالة المطبوعات، ١٩٧٣، ص ٢٣١ .

(6) Shera, Jesse H.: Labrarian and Organization of knowledge, p. 18.

(7) Encyelopeadia of Library and information Science, N.Y Marcell Dekker, 1970. Vol III. p. 73.

(8) Ibid Vol II. p. 659.

(9) كريمر، صموئيل: من الواح سومر ص ٦٢ .

(10) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. ج ١. بغداد. دار البيان، ١٩٧٣. ص ١٤٨ .

(11) كريمر، صموئيل: السومريون ص ٢٢٦ .

(12) Oppenheim, A, Leo, Ancient ;Mesopotamia: Revised Edition Completed by Erica Reiner, Chicago, The University of Chicaga Press,1977 .P.18.

(13) Bushnell, George H.: The world's Earlist Libraries, London, Grafton and Co. 1931. P. 12

(14) Jastrow, M.D: Did Babylonian Temples have Libraries Journal of the American Oriantal Society, Vol. 27. 1906. P. 159.

(15) Bushnell, G.H.: op. cit. P. 15.

(16) عواد كوركيس:
خزائن الكتب القديمة في العراق ، منذ اقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة، بغداد مطبعة المعارف ، ١٩٤٨. ص ٤٦ – ٤٧ .

(17) عواد ، كوركيس: نفس المصدر ص ٤٧ .

(18) Woolley C. Leonard: Ur of chaldes; Record of seven years of Excavation, 2nd. ed. London, Ernest Benn, 1950. pp. 94–111.

(19) Bushnell, G. H.: op. cit. pp. 21–22.

(20) Jastrow,M.D.: op. cit. P. 152.

(21) Norris; Dorothy May: A History of Cataloging Methods 1100–1850, with an Introductry of Survey of ancient time, London, Grafton and Co. 1939. pp. 3–4.

(22) Oppenheim, A. L. op. cit. p. 241.

(23) كريمر ، صموئيل: من الواح سومر ص ٤١٢ . –

(24) Oppenheim, A.L.: op. cit. P. 241.

(25) Ibid P. 24.

(26) Wiseman, D. J.: Books in Ancient world. The Cambridged History of Bible from Begining to Jerome, Ed. by Sckroyd, P.E. and C.F. Evan's. London, Cambridged University Press. 1975. P. 33.

(27) Oppenheim, A. L.: op. cit. P, 241.

(28) كبيراً، ادوارد: كتبوا على الطين: ط ٢
ترجمة وتعليق محمود حسين الامين، بغداد مكتبة المثنى . ١٩٦٤. ص ١٣١ .

(29) Wiseman, D.J.: op. cit. p. 3, Oppenheim, A.L. P. 241.
(30) Encylopeadia of Library and information Science.Vol II.P659
(31) Shera, J sse H: The Classified catalag; Basis principles and practies chi ago American Library Assosation 956 P.8 .
(32) الامين، عبد الكريم وآخرون : مبادىء الفهرسة والتصنيف ج١، بغداد الجامعة المستنصرية ١٩٧٩. ص ١٨ .
(33) الامين، عبد الكريم : نفس المصدر السابق ص ٢٠ .
(34) Dunkin, paul S.: Cataloging USA., Chicago. American Lib ary Assocation, 1969-P. 23.
(35) الامين، عبد الكريم : نفس المصدر السابق ص ٢٦ – ٢٧.
(36) كريمر، صموئيل: من الواح سومر ص ٤٢٠ .
(37) Taylor, Kanadry: Subject Catalog VS Classified catalog Newyork, Columbia University, 1953, P. 102.
(38) Oppenheim, A. Leo, op. cit. P. 18.
(39) Sayers, W.C. Berwick: Introduction to Library Classification; Theoratical and practical: 8thed London. Grafton Co., 1950. P. 78.
(40) Ibid. 73.
(41) Oppenhiem, A. Leo.: op. cit. p. 242.
(42) Ibid. P. 16.
(43) Norris, D.M.: op. cit. pp. 2 –
(44) كريمر، صموئيل: كتبوا على الطين ص ١٩١ .
(45) Bushnell, G.H.: op. cit. pp. 13 – 14.
كريمر، صموئيل: السومريون ص ٢٣١ .